

لقاء مع الكاتبة روز شوملي

«كيف أكتب مع الأطفال»

تصبح مثل رهف. تغار من الذين خبهم، ولذلك هي في مدّ وجزر مع رهف، ومع أصدقائها الآخرين. تهرب معي من الحصار إلى الطبيعة متجاوزين منع التجول. ترافقتنا ببسان، طفلة في مثل سنّها تسكن الحارة المجاورة. تنظر إليهما فتظن أنهما توأمان. رعد وببسان تتمايلان مثل طيور النورس التي خلق فوقهما. تلتحمان مع الصخور والأشجار كأنهما جزء منها. تقلدان بعضهما، وتحاول كل منهما أن تثبت نفسها. تأتي قصة نزهة لتعكس ما حدث في تلك النزهة - طفلتان في مرحلة الطفولة المبكرة، تنسجمان كثنائي في اللعب، تنطلقان في أول يوم تتحرران فيه من قيد الحصار. يحلق خيالهما حيث لا حدود للخيال، حيث هما مركز الكون.

عماد، ابن الثامنة، يهرب من الحصار إلى أيامه الحلوة في قليبية، بيت جده، المشهد الذي يسيطر على الذاكرة. جدته جلس في الحديقة خيك الصوف، وجده ما زال يعمل رغم كبر سنه. أستطيع أن أرى جده وهو يعمل في محله، وابنة خالته تقود الدراجة وهو يراقبها كي يتعلم قيادة الدراجة. عماد يحاول أن يتجنب الحديث عن تجربته الأولى في ركوب الدراجة، وعن تعثره قبل أن يتمكن من القيادة. أستطيع أن أرى التحول في شخصية عماد من خائف وحذر وخجل في الحديث عن لحظات الفشل إلى استخدام الدعابة للتعبير عن هذه العثرات. أصبح هو الكاتب، وهو الذي يتحكم في سلوك الشخصية. ولذلك تطول تجربة عماد الشاقة في ركوب الدراجة. تتخللها مفارقات مضحكة بطريقة تجعل القصة شيقة. ذلك التحول في شخصية عماد وفي قدرته على الخلق اللغوي، واللعب بالكلمات، يعكس نفسه على أدائه في اللغة العربية. بعد أسبوع واحد فقط من رفع الحصار والتثام المدارس، ترى المعلمة هذا التغير بوضوح. عماد يخشى أن يبتز حلمه وأن لا يتمكن من العودة إلى بيت جده. لذلك ينهي قصته بيت جدي بأمنية أن يتغير الوضع، وأن ينسحب الإسرائيليون كي يزور بيت جده في العطلة الصيفية القادمة، ومعه دراجته الجديدة.

داوود لم يتجاوز التاسعة من العمر، لكنه يبدو في الثانية عشرة. لا يُعامل داوود أبداً حسب عمره بل حسب شكله. لذلك يحمل داوود مسؤوليات تفوق عمره، ويتحدث أحياناً كرجل صغير. داوود يخجل أن يُمسك به في لحظة خوف. داوود يتحدث بلغة الكبار كأنه لم يعد طفلاً. تماماً كما هو متوقع منه. هو الأكبر في البيت، وهو ساعد أبيه الأيمن. لكنه يبكي وحده في الليل، ومخاوف داوود كثيرة، يخاف أن تلد أمه على الحاجز، فيفقدوها. يخاف أن يُعتقل أبوه مرة أخرى. يخاف أن يحمل الأشياء لأنه قد يكسرها. قال لي أبوه مازحاً: لكثرة ما كسر من أشياء سميناه الكسار. والأهم من ذلك خوف داوود من الذهاب إلى المدرسة، كونها قريبة من المقاطعة، ما يجعلها هدفاً مكنياً للقصف.

تبدأ القصة من الأطفال من واقعهم، من تجربتهم الشخصية، من مشكلاتهم اليومية ومعاناتهم في مواقف معينة، من أحاسيسهم تجاه هذه المواقف. كل يرصد أحداثاً توثقه. تتكشف الأحداث عن خيط يربطها. مع الأحداث تتضح الشخصيات. يصبح الطفل هو الراوي. ويبدأ برواية الحكاية. أسجل أنا الحكاية. أتدخل بالسؤال، تكبر الحكاية، وتترابط الأحداث. أسأل عن مشاعرهم في تلك اللحظات. فتنفخ الروح في الكلمات، التعبير عن المشاعر كان الأصعب. ولأنهم أبطال قصصهم، يريدون أن تأخذ القصص نهاياتها السعيدة قبل أن تنتج. أحياناً، نترك القصة قبل خط النهاية كي تختتم. كنت أرى القلق في عيونهم أثناء خلق الحكاية. نهاية القصة تنهي هذا القلق، لأنها تحمل معها حل المشكلة التي طالما أرقتهم.

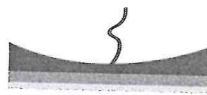
كل قصة ننجزها تقرأ للجميع. يضحكون معاً، يسألون عن معنى كلمة ما، يضيفون شيئاً للأحداث كي تصبح القصة مقنعة. أحياناً، تتطلب القصة أكثر من لقاء. أحياناً تأتي النهاية باهتة. نترك القصة يومين ثم نعيد قراءتها. نفكر في حلول مناسبة، تصبح القصة لعبة يشارك فيها الجميع.

في قصة رهف، لا شجار بعد اليوم، تركنا النهاية معلقة. قرأنا القصة، ووضعناها بين يدي الأطفال كي يفكروا فيها، حلول مختلفة، ومناقشة الحلول. حتى جاءت النهاية التي أفضلت القصة. رهف، الطفلة ذات الأعوام السبعة، تخجل أن تسمعك صوتها، وتتجنب أن تنظر في العينين حين تخاطبك. لا تستطيع المواجهة، خاصة حينما يتعلق الأمر بأولاد الحارة من الذكور. تكبت مشاعرها في العادة. لكن في هذه القصة، تصبح قائدة لشلة البنات، تعبّر عن غضبها، وعن إحساسها بالقهر. تتغلغل القصة في كيان رهف، فلا يعود هناك فصل بين أحداث القصة ومجريات الواقع. ومع انتهاء القصة جد رهف الحل لمشكلتها.

رهف تستعير قصة هل أنت جبان يا برهان كي تعطيهما لنديم، الذي يضايقها باستمرار. أعطيتها القصة دون تعليق، ولكنني أدرك تماماً أن رهف تريد إيصال رسالة - ليس بالعنف وحده يحيى الإنسان. ويصبح الصراع الوحيد الذي يجوز فيه استخدام العنف هو الاحتلال.

رهف تبتلع الكتب الآن. تتحدث عن حقها في أن تعبّر عن رأيها وعن حقها في المساواة. رهف لها حضور بين الأطفال الآخرين. هي التي تنسق مواعيد لقاءاتنا. الآن تنظرك في العينين وتتكلم بصوت حُرص على أن تسمعه.

رعد، أخت رهف الصفري ذات الأعوام الأربعة، هي الأخرى تريد أن تكتب قصة، غير أنها لا تعرف الكتابة بعد. حاول جاهدة أن تقنعني بأنها تقرأ. تمسك بقصة وتبدأ القراءة. لكنها تقرأ من الذاكرة، حفظ القصص التي تقرأها لها رهف. رعد تريد أن تكبر بسرعة كي



وحيداً بالمشكلة. قرأ أيضاً هل أنت جبان يا برهان فأكسبته قوة. قرأ عشرين قصة في أقل من أسبوع. فاستحق بذلك كتابين جديدين هدية. جاءت قصته سباق الدراجات لتحل مشكلته، وليعيد لنفسه الاعتبار. فبعد أن كان يعاني من اضطهاد أولاد الحارة الكبار. يصبح في القصة منقذاً. ويحقق للأطفال الآخرين الانتصار على الذين يعاملونهم بقسوة.

كان جمال أكثرهم توتراً قبل البدء في كتابة القصة وخلالها. بدا وهو يروي قصته خائفاً متردداً، كأنه يخشى أن يواجه الأولاد الكبار في سياق القصة. تركنا القصة بضعة أيام. كان جمال بحاجة إلى هذا الوقت كي يلملم نفسه. كان حائراً في كيفية الوصول إلى حل. قرأنا القصة لجميع الأطفال. وكالعادة. حين تتعقد الأمور. تأتي الاقتراحات ببدايل. وهكذا. يصل جمال إلى نهاية تسمح له بالانتصار دون أن يلجأ إلى طرق ملتوية. لذلك يساعد جمال خصمه حين يقع عن الدراجة. رغم أن خصمه كان يحاول أن يوقع به. هكذا تنتهي القصة بفوز جمال. دون أن يفقد جانبه الإنساني. كتابة القصة أخرجت التوتر إلى السطح. ومع النهاية. يستعيد جمال احترام الجميع. يصبح أكثر ثقة بنفسه وأكثر اعتزازاً. وإذ يتجاوز جمال خجله. ينطلق في التعبير عن مشاعره. تلاحظ أمه أنه صار أكثر طلاقة. وأكثر سهولة في التعبير عن نفسه. تعلق جمال بالغرفة الصغيرة. فيها كل ما يريد من كتب. ولا يترك جمال الغرفة إلا ومعه بضعة كتب.

جمال لا يكتفي بالكتب التي تخاطب عمره. بل ينافس أخاه داوود على الكتب التي يقرأها. كانوا محاصرين داخل أنفسهم. أخرجتهم الحكاية من هذا الحصار وأطلقت خيالهم العنان. أعرف أنهم ينامون دون قلق. وأنهم يحلمون بالقصص التي بدأها ولم تنته منها بعد. كانوا تحت الحصار. فحملتهم ورشة الحكايات إلى بر الأمان. قصصهم شهادتي.

داوود لم يكن قادراً على للممة نفسه. لا يستطيع أن يركز على شيء محدد. الألعاب التي يحبها عادة من هم في مثل سنه لا تستهويه. والألعاب التي تناسب حجمه لا يستطيع أن يضبط إيقاعه معها. داوود لا يحب القراءة. ويكره أي نشاط يتطلب منه أي جهد ذهني. هو مشتت الأفكار دائماً. في أول لقاء حضره داوود. كان وجلاً أرسلته أمه مع كتاب اللغة الإنكليزية التي شكلت أزمة له. تصفحت الكتاب. فهمت لماذا لا يحب داوود اللغة. وضعت الكتاب جانباً. ولعبنا لعبة اللغة. حولت اللغة إلى سلسلة من الألعاب. والرقص والأغنيات. أخذ داوود مكاني وقام بالدور نفسه. قلت: لتلقي غداً في العاشرة. قال داوود: في الثامنة. وصلنا إلى حل وسط. في التاسعة.

داوود يسأل كثيراً. ولا يتوقف عن الأسئلة. والداه يفقدان صبرهما من الأسئلة التي لا تنتهي. أعطيتهما قصة لماذا التي تروي قصة طفلة تسأل لماذا باستمرار ودون توقف حتى أوصلت أباهما إلى مرحلة فقد القدرة على التحمل. لكنها استطاعت. من خلال سؤالها العنيد. أن تنقذ منطقتها من العدو الخارجي. في اللقاء الثاني مع داوود. قرأنا قصة لماذا. فرح داوود لأنه شعر أنه ليس الوحيد في هذا العالم الذي يحب أن يسأل لماذا. تحدثت رهنف عن الكتب التي استعارتها. أخذ داوود الكتب نفسها. أخذ أخوه جمال كتابين للقراءة أيضاً. توالى الكتب. وتعددت اللقاءات وأصبح اللقاء يطول. لا أحد يمل. أحياناً حتى العاشرة ليلاً. آخر كتاب قرأه داوود كان كتاب مياو يا ولدي للمؤلفة السويدية أستريد ليندجرين. بعد أن قرأ داوود الفصل الأول. أبدى إعجابه بالكتاب. حدثته عن الكاتبة التي توفيت حديثاً. أخبرته كم يحبها الأطفال في السويد. وفي أوروبا. حدثته عن حديقة القصص التي زرتها في السويد حيث تعرض بالصوت والصورة بعضاً من مشاهد قصص المؤلفة. تشجع داوود. يريد أن يكتب قصة مثل رهنف. لذا. كان عليه أن يأتي في اليوم التالي حاملاً معه أحداثاً أفلقتة. ومشاعره حيالها.

كان داوود في الباب قبل الجميع. تماماً في التاسعة. قال أريد أن أكتب عن الحصار. بدأنا تسجيل بعض الأحداث التي ارتبطت في ذاكرته بالحصار. منع التجول. الانقطاع عن المدرسة. مرافقة أبيه إلى السوق أثناء رفع منع التجول. اللعب في الحارة. الخوف! في القصة يُقرّ داوود دون خجل أنه شعر بالخوف عندما رأى الدبابات. ويتحدث عن مشاهداته عند رفع منع التجول. اقترحت أن أسمي القصة مفردات جديدة. لكن داوود قرر أن يسميها صمود. وهكذا كان.

جمال. أخو داوود ويصغره فعلياً بسنة. لكنه يبدو أصغر منه بأربع سنين على الأقل. تشعّر أنّ في داخله غضباً وشعوراً بالهوان. يتعرض الأولاد الكبار له. يهينونه. ويفرضون سيطرتهم عليه. جمال قليل الكلام. كأن داوود. كونه الأخ الأكبر. اختطف منه كل الكلام. ولم يترك له مجالاً يعبر فيه عن رأيه. جمال التحم مع الكتاب. وكان فيه خلاصه. قرأ جمال قصة أخي الكبير. قرأها أكثر من مرة. لم يعد

■ هذه ضمن سلسلة من اللقاءات عقدها فرع اببي في فلسطين PBBY في مركز موارد ادب الاطفال في مؤسسة تامر